الفصل الخامس
الإضافات التى قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب لتطور الفكر الاجتماعى العربى

المقدمة

١ - نشوء المجتمع.

٢ - العلاقة بين الفرد والمجتمع.

٣ - المورفولوجية الاجتماعية.

٤ - العمران البشرى.

٥ - السكون والديناميكية الاجتماعية.

٦ - تصنيف المجتمعات.

٧ - طبقات المجتمع.

٨ - منهجية العلوم الاجتماعية.

٩ - دور القيم فى التربية والسلوك.

١٠ - التغير الاجتماعى.

المقدمة:

بعد الاطلاع على الأفكار والطروحات والنظريات والقوانين الاجتماعية العلمية التى عبر عنها المفكرون الاجتماعيون العرب خلال القرون التى عاشوها ابتداء من القرن العاشر الميلادى وحتى القرن الخامس عشر الميلادى، نستطيع أن نستنبط البدايات التى أصبحت فيما بعد حجر الأساس لعلم الاجتماع الكلاسيكى الذى نهض به الأوروبيون[1].

إن ما جاء به علماء الاجتماع الغربيون ما هو بالحقيقة إلا امتداداً لما تطرق إليه المفكرون الاجتماعيون العرب فى سياق نظرياتهم عن طبيعة المجتمع وقوانين ثباته وتحوله، وماهية النظم الاجتماعية وتكاملها والعلاقة بين الفرد والجماعة من جهة وبين الجماعة والمجتمع من جهة أخرى ومورفولوجية المجتمعات وتحليلها إلى عناصرها الأولية، والقيادة والمجتمع ومنهجية الدراسة والبحث فى العلوم الاجتماعية ودور القيم فى التربية والسلوك.

وقد عنى المفكرون الاجتماعيون العرب بدراسة ديناميكية الحياة الاجتماعية وحللوا عوامل التطور والطفرة التى أدت إلى التغير الاجتماعى السريع الذى لا يمكن أن تشهده أمة أخرى فى تلك الفترة الوجيزة التى قطعتها لدولة العربية فى وصولها إلى قمة مدارج الحضارة[2].

فى هذا الفصل سنتطرق إلى الإضافات التى قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب لتطور الفكر الاجتماعى قبل أكثر من خمسة قرون والتى يمكن أن تكون التراث الاجتماعى العلمى الذى يرتكز عليه علم الاجتماع العربى، هذا التراث الخصب الذى

---

(1) Hinkle, R. The Development of Modern Sociology, Random House, New York, 1963, p. 5.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة تحليلية فى النظريات والنظم الاجتماعية، مطبعة التعليم العالى، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٠٢.

اعتمد عليه المفكرون والمنظرون الاجتماعيون الغربيون فى رسم المعالم الجوهرية لعلم الاجتماع المعاصر، بعد فصله عن بقية العلوم الاجتماعية الأخرى[١].

وقد ساعد هذا التراث فى تطور مناهج وطرق البحث الاجتماعى وإنضاج نظرياته وتراكم المعرفة فى حقوله الأساسية، لذا والحالة هذه ينبغى على علماء الاجتماع العرب المعاصرين الرجوع إلى التراث الاجتماعى العربى الذى تجسد فى أفكار ونظريات الرواد الأوائل والاعتماد عليه فى تفسير حقيقة الواقع الاجتماعى بعد الأخذ بعين الاعتبار التغيرات والمستجدات التى طرأت على علم الاجتماع فى ضوء المساهمات الحديثة لعلماء الاجتماع فى العالم. كما ينبغى أن يكون التراث الاجتماعى العربى المرجع الأساسى للملامح الحديثة التى يتسم بها علم الاجتماع العربى.

الإضافات الأساسية التى قدمها المفكرون الاجتماعيون العرب لتطور الفكر الاجتماعى العربى

١ - نشوء المجتمع:

ينطلق المفكرون الاجتماعيون العرب فى تفسيرهم لأصل نشوء وتطور المجتمع الإنسانى فى تعليل حقيقة الاجتماع الإنسانى، إذ يعتقدون بأن الإنسان حيوان اجتماعى بالطبيعة نظراً لسيطرة الغريزة الاجتماعية عليه سيطرة كاملة، وأن اجتماعية الإنسان هى التى تقود إلى اندفاعه نحو تكوين علاقات اجتماعية مع الغير وظهور أنماط مختلفة من التضامن كالتضمن الاقتصادى والسياسى والروحى والقيمى... إلخ[٢].

ففى حالة التضامن السياسى يستدعى دخول الأفراد فى علاقات تعاونية تهدف إلى تمشية أمور المجتمع والسيطرة عليه والكفاح من أجل تحقيق أهدافه وطموحاته، ولهذا تظهر الدولة لتؤدى الوظائف الجليلة التى يحتاجها الأفراد والسيطرة على المجتمع سيطرة تؤدى إلى تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة[٣].

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، المورد، العدد الثالث، إصدار وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٦، ص ٦٠ - ٦٣.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، رواد الفكر الاجتماعى، دراسة تحليلية فى تاريخ الفكر الاجتماعى، مطبعة دار الحكمة، بغداد.

(٣) شرف الدين، خليل، ابن خلدون، بيروت، منشورات دار ومكتبة الهلال، بدون سنة طبع، ص ٦٢.

يرى ابن خلدون بأنه عندما تتحقق الضرورة الاجتماعية عند الناس تظهر السلطة في المجتمع[1].

فالمجتمع في نظر ابن خلدون شيء طبيعي، وهو لهذه الصفات يخضع لقوانين عامة مثله في ذلك مثل الظواهر الفردية، وظواهر الحياة في الكائنات الحية.

ولهذا فإن الاجتماع الإنساني أمر طبيعي وضروري، وإن شعور الفرد برغبته في الحياة الاجتماعية إنما هو شعور فطري يدفعه إلى محاولة الاستئناس بأخيه الإنسان، كما أن النزعة المجتمعية تعتبر نزعة إرادية إلى جانب أنها عاطفية فطرية.

إن نقطة البدء في نظرية ابن خلدون هي أنَّ المجتمع ظاهرة طبيعية من خلال توضيح الأسباب التي تجعل الناس يتحدون فيما بينهم مركزاً على التكامل الاقتصادي والأمن.

يوضح الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال حقيقة الإنسان ومدركاته بأنواعها ووظائفها وأثرها على عقل وتفكير الإنسان حيث قال: «اعلم أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة، خلق خاليًا ساذجًا لا خير معه من عوالم الله سبحانه وتعالى» والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى[2].

وأكد الغزالي على أن الإنسان لا يستطيع العيش لوحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره لأجل تحقيق البقاء من خلال النسل والتعاون والتحصن لتأمين الحماية اللازمة[3].

أما الفارابي فقد بدأ بحوثه الاجتماعية بتحليل حقيقة الاجتماع الإنساني والدوافع الضرورية إلى قيامه حيث يقول إن الإنسان حيوان اجتماعي بطبيعته، أي أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة لا يستطيع الحصول عليها بمفرده، فهو لا بد له من التعاون مع أعضاء جنسه لكي يستطيع تحقيق الغاية من الاجتماع الإنساني، وهي تحقيق السعادة للإنسان[4].

---

(1) Shnidt, N. Ibn Khaldun, New York, Columbia University Press, 1930, p. 31.

(٢) الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال، اللجنة الدولية للترجمة والروائع، بيروت، ١٩٥٩، ص ٤٠ - ٤٥.

(٣) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ التفكير الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٢.

(٤) الفارابي، أبو نصر، تحصيل السعادة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٠ - ٦٢.

وإن تحقيق السعادة لا يتم عن طريق التعاون المادى فحسب، بل لا بد له أيضًا من التعاون الروحى أو الفكرى، لأن السعادة تتصل بأفضل القوى الإنسانية وأكملها وهى قوته العقلية[١].

وينظر الفارابى إلى المجتمع الإنسانى من خلال حاجة الفرد للاجتماع، حيث قال: «يحتاج الإنسان فى وجوده وبلوغه نحو الكمال إلى أشياء كثيرة لا يمكن أن يقوم بها كلها وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه»، ولذلك لا يمكن للإنسان أن ينال إلا باجتماع جماعة كبيرة يقوم كل واحد من أفرادها بمساعدة الآخر بما يحتاج إليه[٢].

إذن فالإنسان فى نظر الفارابى من الأنواع التى لا يمكن أن يتم لها بالضرورى من أمورها ولا تنال الأفضل من أحوالها إلا بالاجتماع والتعاون وخصوصًا الاجتماع الإرادى لا الغريزى الذى هو أساس هذا الاجتماع[٣].

أما ابن الأزرق فقد أوضح فى مؤلفه «بدائع السلك فى طبائع الملك» بأن الاجتماع الإنسانى هو عمران العالم البشرى وهو أمر ضرورى لبقاء الإنسان، فالإنسان لا يمكنه العيش بمفرده دون التعاون مع أبناء جنسه، ولهذا يتم الاجتماع مع غيره لأجل تحقيق العيش السعيد، وإن انقسام البشر إلى بدو وحضر ناتج من حاجتهم إلى المعاش، حيث إن البدو يلجأون إلى الضرورى فقط، أما الحضر فإنهم يتوسعون فوق الضرورى[٤].

---

(١) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، ط٢، لجنة البيان العربى، ١٩٥٦، ص ٦٠ - ٦١.

(٢) الفارابى، أبو نصر، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم وشرح إبراهيم حزينى، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، ص ١٠.

(٣) مرحبا، محمد عبد الرحمن، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعى، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٦٠.

(٤) ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد، بدائع السلك فى طبائع الملك، الجزء الأول، تحقيق د. محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٢، ص ٣٠ - ١٨٠.

٢ - العلاقة بين الفرد والمجتمع:

يعتقد المفكرون الاجتماعيون العرب بأن الفرد هو الوحدة الأساسية لتكوين المجتمع، ولولا الفرد لما ظهر المجتمع ولما استطاع أن يتطور وينمو ويتقدم فى معالم الحضارة والمدينة، كما أن الفرد يحتاج إلى المجتمع لأن الأخير هو أساس طموحات وأمانى وأهداف الفرد، وأنه يزود الفرد بالمهارات والقابليات ويعلمه العادات والتقاليد والقيم ويلقنه اللغة التى يتكلم بها والدين الذى يؤمن به ويدافع عنه عندما تداهمه المخاطر والتحديات[١].

ومن جهة أخرى يرى الفارابى بأن المجتمع يحتاج إلى أفراد يعتبرون بمثابة الوحدات العاملة التى تحقق أهدافه وتدافع عن مصالحه وتتخذ القرارات والإجراءات التى من شأنها أن تطور المجتمع وتدفع حركة تقدمه إلى الأمام. ويعتقد الفارابى بأن الفرد لا يمكن أن يأتى قبل الجماعة والجماعة لا يمكن أن تأتى قبل الفرد، ذلك أن الفرد مهم للجماعة والجماعة مهمة للفرد، وإن هناك درجة عالية من التكامل بينهما[٢].

فالفرد لا يمكن أن يفضل على الجماعة باعتبار أن الأخيرة مصدر الأحكام والقوانين والعادات والتقاليد والأخلاق والقيم، كما أن الجماعة لا يمكن أن تفضل على الفرد باعتباره الوحدة الأساسية لبناء المجتمع، والغاية والوسيلة من الوجود الاجتماعى بما يتضمنه من عوامل مادية وروحية[٣].

ويعتقد الغزالى بأننا لا نستطيع فهم الجماعة والمجتمع دون أن نفهم الفرد لأنه الوحدة الأساسية لبنائهما. وقد بذل الغزالى قصارى جهده فى دراسة الإنسان ومعرفة كوامنه وتحديد الدوافع الأساسية لتحديد حركته ونشاطه[٤].

---

(١) عبد الباقى، زيدان، التفكير الاجتماعى، نشأته وتطوره، القاهرة، مطبعة دار النشر الثقافية، ١٩٧٢، ص ٨٠ - ٨٢.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) بدر، غسان زكى (الدكتور)، النظام الاجتماعى، دراسة موجزة فى نظريات علم الاجتماع، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٣، ص ٦٠ - ٦٥.

(٤) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ الفكر الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٢.

وأوضح بأن دراسة الإنسان تقتضى معرفة النفس البشرية التى قسمها إلى قسمين أساسيين هما النفس العاملة والنفس العالمة، وأكد بأن القسم الأول هو أساس القوة العضلية للإنسان، أما القسم الثانى فهو الذى يحدد الذكاء عند الإنسان ويرسم صوره وأخلاقه وقيمه ومقاييسه، ويوضح طبيعة ميوله واتجاهاته ومصالحه وتفكيره وأهدافه[١].

٣ - المورفولوجية الاجتماعية:

اهتم علماء الاجتماع العرب بمورفولوجية المجتمعات التى تنطوى على أشياء كثيرة كالتوزيع المهنى والجغرافى والعمرى والجنسى للسكان والعلاقة بين معالم البيئة الطبيعية ومعالم البيئة الاجتماعية والتوازن بين حجم السكان وحجم الموارد الطبيعية. ودرس ابن خلدون فى كتابه المقدمة كل ما يتعلق بسكان المجتمع البشرى من حيث صفاته البيولوجية والاجتماعية والعوامل المؤثرة فى زيادته أو قلته وهجرته من مكان لآخر، وتناول دراسة العلاقة بين المناخ وقيام الحضارة والمناخ والعادات والتقاليد والقيم مزاج الشعوب، وعرف ابن خلدون الظواهر التى تتعلق ببنية المجتمع (المورفولوجية الاجتماعية) وهى مجموعة من الظواهر التى تتصل بالبدو والحضر وأصول المدينة القديمة، وتوزيع أفراد الإنسانية على المساحة التى تشغلها والنظم التى تسير عليها المجتمعات فى هجرة أفرادها وكثافتهم وتخلخلهم والمسائل التى تتعلق بتخطيط القرى والمدن وقيام الأمصار والشروط التى تتعلق بمواقعها ومرافقها والوظائف التى تؤديها[٢].

أما ابن بطوطة فقد درس أثر الظواهر الطبيعية والمناخية والأرضية فى قيم وعادات وأديان المجتمعات التى زارها واشتق قوانين اجتماعية كونية تفسر العلاقة بين المعالم الطبيعية والحضارات الإنسانية التى شهدتها المعمورة[٣].

لقد ركز العلماء والمفكرين الاجتماعيون العرب عنايتهم إلى دراسة مظاهر التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية، وقد تعرضوا إلى إظهار أثر العامل الجغرافى على المظهر العمرانى فى أكثر من موضع ففسروا كثرة العمران وازدياد السكان بالظروف المناخية

---

(١) الغزالى، شيخ الأرض تيسير، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٥٩.

(٢) عبد الباقى، زيدان، التفكير الاجتماعى، نشأته وتطوره، مطبعة دار الفكر العربى، ط٣، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٨٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق وتقديم د. على عبد الواحد وافى، لجنة البيان العربى، القاهرة ١٩٦٥، ص ٧٠.

وتأثير المعتدل من الأقاليم والمنحرف منها فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم[١].

وأوضحوا بأن الأقاليم المعتدلة يكون سكانهـا أعدل أجسامًا وأخلاقًا وأديانًا، وإن أشكال التجـمع الإنسانى والنظم التى تسيـر عليها الجمـاعات البشرية فى إنشـاء مواطن التجمع كالقرى والمدن والأمصار هى أساسها الأقاليم المعتدلة المناخ[٢].

٤ - العمران البشرى:

يركز ابن خلدون انتباهه وجهوده الفكرية فى كتابه «المقدمة» على موضوع العمران البشرى موضحًا بأن الأجزاء والنظم الفرعية هى التى يتكون منها المجتمع، فابن خلدون يقارن بين الكائن الحـيوانى والكائن الاجـتماعى من ناحـية البناء والوظائف، فالمجـتمع بنظره لا يختلف عن الكائن الحـيوانى الحى من أجهزة عضـوية بيولوجية، فـإن المجتمع الإنسانى يتكون أيضًـا من نظم وبنى فرعيـة لها وظائف معينة ومـترابطة بعضهـا ببعض كالنظام السياسى والنظام الدينى، والنظام العائلى والنظام التربوى. ومجموعة هذه النظم التى لها أهداف محددة تسمى بالعمران البشرى الذى خصص له ابن خلدون عدة فصول فى كتابه المقـدمة، كما أن هذه النظم هى التى تعين أنشطة المجـتمع وفى بعض الحالات ترسم المسيرة التطوريـة للمجتمع خصوصًـا عندما يتطور أحدها تطوراً فجـائيًا وجذريًا، بحيث يؤثر على بقية الأنـظمة وهنا يحدث ما يسمى بالتحول الاجـتماعى. وتحدث ابن خلدون فى كتابه المقدمة عن الصنوف المختلفة للعمران البشرى فهناك العمران المتعلق بأثر البيئة الجغرافية فى ألوان البشر وأخلاقهم وطرق معاشهم[٣].

وهناك العمران البـدوى الذى يتخصص بدراسة طبـيعة الشعوب البـدوية ونشأتها وشؤونها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وعاداتها وتقاليدها وقيمها[٤].

---

(١) الخشـاب، أحمد (الدكتـور)، التفكير الاجـتماعى، دراسـة تكميلية للنظريـة الاجتماعـية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص ٣٠٨ - ٣١٠.

(٢) شركين، فؤاد، تاريخ التـراث العربى، ترجمة عرفـة مصطفى، مراجعة مـازن عماوى، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام حمد بن سعود، جدة، ١٩٨٨، ص ٧٠ - ٨٠

(٣) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، رواد الفكر الاجتماعى، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٩٩١، ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) سعد، أحمد صادق تاريخ العرب الاجتماعى، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨١، ص ٥٠ - ٦٠.

وهناك العمران الحضرى الخاص بالبلدان والأمصار ومواطن التجمع الإنسانى، وهناك العمران الاقتصادى الذى يدور حول الموارد والثروات والمهن وأساليب كسب المعاش والصناعات ودورها فى استقرار السكان ورفاهية الحياة الاجتماعية. وأخيرًا هناك العمران الدينى الذى يتخصص بالعبادات والأديان وأماكنها ودورها فى تهذيب نفوس البشر وتطوير سلوكهم وقيمهم[1].

ويوضح ابن خلدون من خلال معالجته لمختلف مجالات العمران البشرى بإثبات حقيقة مؤداها أن الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى وإلا لم يكمل وجودهم. وضرورة الاجتماع ترجع إلى التعاون بين البشر لإنتاج مقومات حياتهم. ويضيف ابن خلدون بأن الحياة لا تستقر ولا يحدث الاجتماع والعمران بدون وجود القيادة السياسية التى تمارس القوة والسيطرة[2].

٥ - السكون والديناميكية الاجتماعية:

يرى علماء الاجتماع العرب بأن المجتمع البشرى هو كائن ساكن ومتحرك فى آن واحد، فابن خلدون يشير إلى أن المجتمع البشرى خلال فترة زمنية محدودة هو كائن ساكن وسبب سكونه يرجع إلى تكامل المؤسسات أو النظم الاجتماعية التى يتكون منها، وأنه فى ذات الوقت كائن متحرك وديناميكى، خصوصًا إذا نظرنا إليه خلال فترة زمنية طويلة، فالمجتمع يتحول كما يعتقد ابن خلدون من مجتمع بدوى ريفى إلى مجتمع حضرى مستقر، كما أنه يمر بثلاثة أدوار أساسية تحق سعادة الفرد وكمال المجتمع وازدهاره فى ميادين الحياة كافة.

ويرى ابن خلدون بأن المجتمع وحدة متكاملة تؤثر ظواهرها المختلفة بعضها بالبعض الآخر. ولهذا عندما نريد دراسة ظاهرة معينة لا بد من الرجوع إلى المؤثرات المختلفة من بيئية ودينية للظواهر الأخرى.

---

(١) سالم، نادية حسن (الدكتور)، أصالة ابن خلدون، بحث مقدم إلى ندوة التراث الاجتماعى العربى، الخرطوم ٢٩ - ٣١ تموز، ١٩٨٥، ص ٥٠٤.

(٢) الساعاتى، حسن (الدكتور)، علم الاجتماع الخلدونى، قواعد المنهج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٨٠ - ١٠٠.

إن ابن خلدون كان يدرس الظواهر الاجتماعية فى حالة استقرارها وفى مظاهر تطورها، أى أنه فطن إلى أهمية الدراسة الديناميكية (التطورية) إلى جانب عنايته بدراسة الظواهر من الناحية التشريحية أى الحالة التى هى عليها فى مكان وزمان معينين[١].

حيث كان يدرس عناصر الظاهرة وأجزائها ووظائفها وما إلى ذلك من مسائل الدراسة الاستاتيكية، ويدرس فى الوقت نفسه تطورها والقوانين التى تخضع لها فى هذا التطور[٢].

فمن أهم الخواص التى تمتاز بها ظواهر الاجتماع الإنسانى أنها لا تجمد على حال واحدة بل تختلف أوضاعها باختلاف الأمم والشعوب وتتلف فى المجتمع الواحد باختلاف العصور.

والظاهرة الاجتماعية تخضع لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية والرياضية[٣].

مما تقدم يمكننا القول أن المفكرين الاجتماعيين العرب قد عنوا بدراسة ديناميكية الحياة الاجتماعية وحللوا عوامل التطور والطفرة التى أدت إلى التغير الاجتماعى السريع الذى لم يكن تشهده أمة أخرى فى تلك الفترة الوجيزة التى قطعتها الدولة العربية فى وصولها إلى قمة مدارة الحضارة[٤].

٦ - تصنيفات المجتمعات:

لكل عالم اجتماعى عربى نظرية فى تقسيم وتصنيف المجتمعات، فابن خلدون لا يقسم المجتمعات إلى أنواع مختلفة تبعًا لدرجة نضجها التاريخى وتقدمها الحضارى

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الجذور التاريخية لمناهج العلوم الاجتماعية عند العرب، مجلة المورد، العدد الثانى، إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، ط٢، مطبعة لجنة البيان العربى، الإسكندرية، ١٩٥٦، ص ٧٩.

(٣) عبد الباقى، زيدان (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، نشأته وتطوره، مطبعة دار الفكر العربى، ط٣، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٨٧.

(٤) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة تحليلية فى النظريات والنظم الاجتماعية، مطبعة التعليم العالى، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٠٢.

فحسب بل يشير إلى المعيار الأساسى الذى يعتمد عليه فى تصنيف المجتمعات، ويعطى الصفات الأساسية لكل نمط من أنماط المجتمعات ويتكلم عن ماضيه ومستقبله.

يعتقد ابن خلدون بأن هناك نوعين من المجتمعات: المجتمع الريفى أو البدوى والمجتمع الحضرى، والمجتمع غالبًا ما يتحول من مجتمع لآخر، فالمجتمع البدوى يتميز بظاهرة العصبية وهبوط الكثافة السكانية وعدم التخصص فى العمل وهبوط المستوى المعاشى والصحى والثقافى والاجتماعى وسيطرة الدين على أنشطة الفرد والمجتمع، ومهنة الرعى وعلاقاته الاجتماعية قوية ومتماسكة.

أما المجتمع الحضرى فيتميز بارتفاع الكثافة السكانية وتنوع عناصر السكان وانتهاج نظام تقسيم العمل وارتفاع المستوى المعاشى والصحى والثقافى والاجتماعى وسيطرة الدولة على أنشطة المجتمع وضعف العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، ويتميز بالاستقرار الجغرافى إذ يقطن أفراده داخل المدن والقصبات ويعتقد على الصناعة والتجارة والزراعة الحديثة[1].

أما المعيار الذى يستند إليه ابن خلدون فى تقسيم المجتمعات فهو طبيعة الاستيطان الجغرافى ودرجة التقدم الحضارى التى يستطيع المجتمع بلوغها مركزاً على العصبية والقرابة المرتكزة على روابط الدم والروابط الاجتماعية، فرابطة العصبية والقرابة هى التى تميز المجتمع البدوى، ورابطة العلاقات الاجتماعية هى التى ميز المجتمع الحضرى. وإن ابن خلدون يميز بين المجتمعات المختلفة بناءً على طبيعة مؤسساتها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها وبيئتها الطبيعية والاجتماعية وأساليب معيشتها وأنماط وسائل ضبطها الاجتماعى[2].

إن نظام الفلسفة التاريخية الذى استعمله اب خلدون فى دراسة المجتمع كان ينطوى على فكرة تقسيم المجتمعات فى العالم إلى أنواع مختلفة تبعًا لدرجة تقدمها الحضارى والاقتصادى والفنى، حيث قال إن العالم الاجتماعى يمكنه مشاهدة نوعين من

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة نظامية، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٦، ص ١٠٦.

(2) Shnidt, N. Ibn Khaldun, New York, Columbia University Press, 1930, p. 30.

المجتمعات البشرية «الآنفة الذكر» وأن دراسة إحداهما لا تتم دون دراسة الآخر لأن كل منهما هو أصل للآخر[١].

ويؤكد ابن خلدون على أهمية النظرية الاقتصادية فى تقسيم المجتمعات، فالمهن التى يزاولها البشر هى التى تؤدى إلى تقسيمهم إلى مجتمعات مختلفة.

أما الفارابى فله نظرية شاملة يقوم بتصنيف المجتمعات على أساسها فهو يصنف المجتمعات البشرية إلى مجتمعات فاضلة ومجتمعات جاهلة. فالمجتمعات الفاضلة هى التى تكون على نمط واحد وتعتمد على مبدأ التعاون بين أفرادها وجماعاتها[٢].

ذلك التعاون الذى يؤدى إلى الاجتماع البشرى الذى يقود إلى الكمال والسعادة بالنسبة للأفراد والجماعات إضافة إلى أن المجتمع الفاضل يتمسك بالمثل والقيم النابعة من تعاليم الدين الإسلامى[٣].

ويتكون المجتمع الفاضل من ثلاثة أنواع من المجتمعات وهى المجتمعات العظمى والمجتمعات الوسطى والمجتمعات الصغرى التى تمثل اجتماع أهل المدينة فى جزء من مسكن أمة[٤].

أما المجتمعات غير الفاضلة فيصنفها الفارابى إلى أنواع مختلفة تبعًا لطبيعتها وما تحمله من أفكار وقيم وما تعتقد به من طقوس وممارسات. وهذه هى المجتمعات الجاهلة والمجتمعات الضالة والمجتمعات الفاسقة ومجتمعات الإباحية... إلخ، وهى التى لا يتوفر فيها التعاون الاجتماعى ولا تستطيع تحقيق السعادة للإنسان[٥].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب العجم والبربر، ص ٣١ - ٤٣.

(٢) الفارابى، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق د. عبد الواحد وافى، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٠ - ٣٠.

(٣) الفارابى، أبو نصر، أهل المدينة الفاضلة، تقديم وشرح إبراهيم جزينى، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، ١٩٧٦، ص ٩٠ - ٩١.

(٤) بور، دى، تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤، ص ١٧٩.

(٥) الفارابى، أبو نصر، السياسات المدنية، تحقيق فوزى مترى النجار، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤، ص ٦٠ - ٨٠.

أما المعيار الذى يعتمده الفارابى فى تقسيم المجتمعات فهو معيار التمسك بالأخلاق الفاضلة التى تنبعث من أخلاقية وتعاليم الإسلام.

٧ - طبقات المجتمع:

اهتم علماء الاجتماع العرب الأوائل بدراسة البناء الطبقى فى المجتمع إذ قسموا المجتمع إلى طبقات مختلفة وأوضحوا المقاييس الموضوعية والذاتية للانتماءات الطبقية وأشاروا إلى ظاهرة الحراك الاجتماعى من حيث وجودها أو عدم وجودها وأثرها فى عملية التحول الاجتماعى[١].

لقد قسم الغزالى المجتمع إلى ثلاث طبقات أساسية معتمداً فى تقسيمه على المهنة التى يزاولها أبناؤه، فهناك طبقة الحكام ورجال الدين التى تحتل موقع الصدارة بسبب المهام القيادية والروحية المقدسة التى تضطلع بها، وطبقة الجندية التى مهمتها الدفاع عن الدولة ضد الأخطار الخارجية، وأخيراً طبقة التجار والفلاحين والصناع التى تقع عليها مهام البيع والشراء والزراعة والصناعة[٢].

وقسم إخوان الصفا المجتمع إلى ثلاثة طبقات هى طبقة الحكام والنبلاء وطبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، ويرجع نشوء هذا النظام الطبقى إلى تفاوت لناس فى الكفاءات والقابليات والميول والرغبات فى أداء الأعمال والخدمات التى يحتاجها المجتمع، واختلاف طبقات الناس يسهل قيام كل طبقة بعمل معين ومن ثم تتعاون الطبقات الاجتماعية على تحقيق التكامل فى الوظائف الاجتماعية.

إن اختلاف الناس على هذا الأساس الطبقى يعتبر حكمة ووظيفة، فالإنسان لا يستطيع القيام بالأعمال كافة، ولهذا فإن تفاوت الناس فى طبقات مختلفة يساعد على تحقيق التكامل فى الوظائف الاجتماعية[٣]

---

(١) الغزالى، أبو حامد، المقصد الأسنى فى شرح معانى أسماء الحسنى، تحقيق فضلة شحادة، بيروت، دار المشرق، ١٩٧١، ص ١٠ - ٣٠.

(٢) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ الفكر الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٣.

(٣) الخشاب، مصطفى (الدكتور)، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٢٧ - ١٢٨.

أما العـوامل المساعدة على الانتـماءات الطبقـية فهى الحـسب والنسب والانحدار الاجتماعى للعائلة وطبيعة المهنة التى يمارسهـا الأفراد والصفات الشخصية والذكائية التى يتمتع بها الأفراد.

أما ابن بطوطة فـيقسم طبقات المجـتمع إلى ثلاثة أنواع هى طبقـة النبلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى وطبقة العوام، كما يضيف ابن بطوطة قائلاً بأن النظام الطبقى فى الريف هو نظام مغلق لا يعطى المجال للفـرد بالحركة الاجتماعيـة من طبقة إلى أخرى، بينما النظام الطبقى فى الحضر هو نظام يكاد يكون شبـه مفتوح، فبعض الأفراد لظروف معيشية يمكن أن ينتقلوا من طبقة لأخرى.

ففى الوقت الذى يوجـد فيه الحدود الصلة الـتى تفصل بين طبقة النبـلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى وطبـقة العوام، يشاهد المرء درجة من المرونة الطبقيـة كانتقال ابن العوام إلى الطبـقة الوسطى أو انخفـاض ابن طبقة النبـلاء إلى الطبقة الوسطى لأسـباب تتعلق بتغير الظروف وظهور الملابسات والمستجدات[1].

أما ابـن خلدون فنراه يربط بين مخـتلف العـوامل التى تحدد المكانة الطبـقيـة من عوامل اقتـصادية أو قرابية أو دينية أو عـامل مراكز القوى، كمـا يرى أن الناس طبقات يفضل بعضها على بعض فى الاستعـداد الشخصى للتأثير فى نفوس الآخرين وللاطلاع على الغيب كالسحرة وعاملى الطلسمات والمستجدات[2].

ويوضح ابن خلدون بأن هناك عاملاً آخراً له أهمية كبيرة فى تحديد المكانة الطبقية وهو المهنة، حيث يحدد المهن والصنائع وكيفية علو أحدها على الأخرى، ودنو كل منها على الأخرى، حيث يصنف الأمم بتـفريق ما بينها وفق أطر الإنتاج، فـيضع فى المرتبة الأولى حياة الحضر مع مختلف الصنائع، ثم يأتى الزراع المجتمعون فى القرى والمقيمون بالبلدان السهلية أو البلدان الجبلية، وأخـيراً يأتى البدو، وكذلك نراه يتكلم عن الفلاحة

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخـية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، مجلة المورد، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، ١٩٨٦، ص ٦٥.

(٢) فروخ، عمر (الدكتور)، موقف ابن خلدون من الدين ومن القـضايا الدينية، أعمال مهرجان ابن خلدون، منشورات المركز القومى للبحوث الجنائية، بالقاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٧٥.

والتجارة والصنائع وخاصة البناء والحياكة والطب والكتابة والغناء والحساب، بالإضافة إلى تصنيفه للقائمين بأمور الدين من القضاء والتدريس والإمامة والخطابة والأذان[١].

ويذكر ابن خلدون إلى أن القائمين بأمور الدين لا تعظم ثروتهم، حيث إن القائمين بأعمال التدريس وما شابهها فى نظره لا تضطر إليه العامة اضطرارًا وهم بشرف مركزهم أعزة على الخلق، الأمر الذى لا يجعل جزاءهم المادى كبيرًا بالنسبة للجهود التى يقومون بها.

٨ - منهجية العلوم الاجتماعية:

استعمل المفكرون الاجتماعيون العرب الذين عاشوا فى فترة القرون الوسطى كالفارابى والغزالى وابن خلدون وابن بطوطة مناهج علمية متعددة فى البحوث والدراسات التى قاموا بها، استطاعوا من خلالها جمع وتصنيف وتحليل وصياغة الفرضيات والنظريات والقوانين الكونية المفسرة للظواهر والنظم والعمليات الاجتماعية التى اهتموا بها[٢].

اعتمد المفكرون العرب المنهج التاريخى والمنهج المقارن والنهج الاستقرائى وهذه المناهج كانت تقوم على أسس ومقومات معروفة.

إن المناهج العلمية المتبعة من قبل المفكرين الاجتماعيين العرب لها أساليبها المختلفة فى الدراسة والتحليل، فالمنهج التاريخى يهدف إلى كشف الماضى والعوامل الجوهرية المؤثرة فى الأحداث التاريخية والربط الجيد بين حادثة وأخرى، فعندما يستعمل المفكر الاجتماعى المنهج التاريخى فى دراسة المجتمع فإنه يضطر إلى معرفة المراحل التاريخية التى مرّ بها المجتمع، حيث إن دراسة الماضى تمكن المفكر من فهم واستيعاب الحاضر[٣].

---

(١) شرف، محمد جلال، نشأة الفكر السياسى وتطوره فى الإسلام، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ٢١٠.

(٢) التل، صفوان خلف (الدكتور)، العلوم والفنون عند العرب ودورهم فى الحضارة العالمية، دراسات فى المجتمع العربى، اتحاد الجامعات العربية، عمان، ١٩٨٥، ص ٣٩٢.

(٣) الخشاب، أحمد (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣٠٥.

إن المنهج التاريخى الذى اعتمده ابن خلدون فى أبحاثه ودراساته الاجتماعية يبدأ بتحيل أصل وجود المجتمع وحتمية حركته وتطوره عبر الأجيال والعصور[١].

كان الفارابى مفكراً يؤمن بالمنهج التاريخى العلمى القائم على الملاحظة والوصف والتحليل والنقد ومحاولة التفسير، ويشير إلى أن هناك قوانين تحدد مسيرة المجتمع وكيفية مروره بمراحل تاريخية مختلفة لها صفات معينة.

واعتمد الفارابى على المنهج المقارن أيضًا فهو أول العرب والمسلمين الذين اعتمدوا على المنهج المقارن، حيث قارن بين المجتمعات الكاملة والمجتمعات الناقصة، وبين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة، واستعمل الفارابى المنهج الاستقرائى حيث اعتمد على استنتاج الحقائق والمعلومات من الأدلة والبراهين العلمية المتيسرة عنده[٢].

اعتمد ابن خلدون فى دراسته المنهج المقارن حيث أشار إلى ضرورة مقارنة الظاهرة بغيرها من الظواهر المرتبطة بها فى المجتمع نفسه وفى غيره من المجتمعات واستفاد من هذا المنهج فى تصنيف المجتمعات إلى أنماط مختلفة تبعًا للمهن التى تزاولها والحياة الاقتصادية التى تعيشها[٣].

أما أسلوب الملاحظة فيرى ابن خلدون أن على الباحث أن لا يقبل شيء إلا إذا رأى ذلك أنه حق بعد أن يتأكد بوضوح أنه كذلك. ومعنى المشاهدة العلمية عند العرب رؤية وفحص ظاهرة موضوع الدراسة مع الاستعانة بأساليب البحث الأخرى التى تتلائم مع طبيعة هذه الظاهرة. ولا تنحصر المشاهدة فى توجيه الحواس فقط، ولكنها تنطوى على عمليات عقلية وتدخل إيجابى من جانب العقل[٤].

---

(١) بوتول، جوستون، ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية، ترجمة غنيم عبدون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٠ - ٤٠.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الجذور التاريخية لمناهج العلوم الاجتماعية عند العرب، المورد، العدد الثانى، إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٨٣ - ٨٤.

(٣) الشكعة، مصطفى، مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الآداب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣، ص -٥١.

(4) Moss, I. Sample Survey and The Administrative Process, International Social Bullétin 15, 1953, p. 488.

وأخيرًا اعتمد ابن خلدون على المنهج الاستقرائى، حيث يستطيع الباحث التوصل إلى النتائج النهائية عن طريق الاستقراء ويستخدمها كحجة علمية فى استدلال استنباطى، حيث يوضح ابن خلدون بأنه بعد الانتهاء من جمع المادة حول الظاهرة يمكن للباحث استخدام الاستقراء للوصول إلى القوانين العامة التى تحكم الظواهر.

ويقتفى الغزالى المنهج الاستقرائى عند دراسته لموضوع التربية فهو لم يحدد دستور التربية وفلسفتها وأهدفها وصفات كل من المعلم والمتعلم فحسب بل يربط بين التربية والسلوك[1].

أما ابن بطوطة فقد استعمل منهج المشاهدة والمشاهدة بالمشاركة فى دراساته الاجتماعية والأنثروبولوجية والجغرافية التى قام بها فى كافة أجزاء الوطن العربى، وإن أفكار ابن بطوطة الاجتماعية لم تكن مشتقة من القراءات والكتب والمصادر، بل كانت مشتقة من مشاهداته وخبرته وتجاربه التى حصل عليها من رحلاته وأسفاره، حيث ربط بين الظواهر الطبيعية والمناخية والأرضية وعادات وتقاليد وأديان المجتمعات التى زارها وتمكن من اشتقاق قوانين توضح أثر الأرض والمناخ فى قيام الحضارات الإنسانية.

ومما تقدم يلاحظ أن ابن خلدون كان يقصد من ولاد هذه القواعد المنهجية التى ذكرها فى مقدمته تمحيص الأخبار وتصحيح الوقائع التاريخية، وكان يرى أن الطريقة المثلى لتحقيق ذلك هى أن يكون عالم التاريخ ملمًا بطبائع العمران وأحوال المجتمع ليستطيع أن يحكم عما إذا كانت الوقائع موضوع بحثه تتفق مع ظواهر المجتمع وأحواله، أى يجب على المؤرخ قبل أن يفسر التاريخ ويعلله أن يلم بدراسة شؤون العمران من سياسية واقتصادية ودينية، حتى يستطيع فى ضوء هذه المعرفة أن يصحح ما بين يديه من الحقائق التاريخية[2].

إن غرض المنهجية هو رغبة المفكر العربى تجريد العقل أولاً من الأخطاء والالتزام

---

(١) النشار، على سامى، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٣٠٠ - ٣٥٠.

(٢) الشيبانى، عمر محمد التومى، مناهج البحث الاجتماعى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٣٠ - ٢٥٠.

بالقواعد المنطقية التى يسير بمقتضاها العقل فى طريقه إلى كشف الحقائق وأساس هذا هو الملاحظة والتجربة والاستقراء.

٩ - دور القيم فى التربية والسلوك:

يؤكد علماء الاجتماع العرب على أهمية المبادئ والقيم الأخلاقية والسلوكية فى بناء وتقدم المجتمعات، كما يعتبرون القيم الاجتماعية الإيجابية من العوامل الأساسية التى تدخل فى عملية التربية والتقويم.

فهذه القيم يجب أن يتمسك بها المربى سواء كان أبًا أو معلمًا أو مرشدًا دينيًا أو قائدًا سياسيًا لكى يستطيع أولاً أن يكون ذا شخصية مؤثرة تمكنه من تمرير القيم المطلوبة إلى الجيل الناشئ، ولكى يتمكن ثانيًا من خلق جيل قوى مؤمن ومدرب يعتمد عليه لمجتمع فى نهوضه تقدمه[١].

ومعظم القيم التى يؤكد على أهميتها علماء الاجتماع العرب الأوائل هى القيم المشتقة من التراث الحضارى العربى الأصيل ومن الدين الإسلامى وشريعته السمحة كقيم البطولة والشجاعة والإيثار وقيم النزاهة والكرامة والاعتداد بالنفس وقيم الصدق والإخلاص فى العمل وتحمل المسؤولية واحترام الكبير والعطف على الصغير وقيم العفة والطهارة والشرف[٢].

ولم يشخص المفكرون الاجتماعيون العرب الأوائل القيم الاجتماعية الإيجابية فحسب، بل حددوا أيضًا طرق غرسها فى النفوس وكيفية تأثيرها على العلاقات الإنسانية والسلوك. فالسلوك فى نظرهم ما هو إلا تجسيد لطبيعة القيم التى يؤمن بها الفرد. ذلك أن السلوك الحسن إنما هو تجسيد حى للقيم الإيجابية التى يحملها الفاعل، والسلوك السيء أو القبيح هو تجسيد حى للقيم السلبية التى يحملها الفاعل، لذا نستطيع معرفة المبادئ وقيم وأخلاقية الفرد من خلال النظر إلى سلوكه وسيرته[٣].

---

(١) غالب، مصطفى (الدكتور) الغزالى، بيروت، مكتبة الهلال، ١٩٧٩، ص ١٣٠ - ١٤٠.

(٢) ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد، بدائع السلك فى طبائع الملك، الجزء الأول، ليبيا، الدار العربية للكتاب، بدون سنة طبع، ص ٣٩٠.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٤٦٢.

ويؤكد علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعى المعاصرون على نفس هذه الحقائق التى طرحها المفكرون الاجتماعيون العرب قبل أكثر من خمسة قرون[١].

لقد حدد ابن الأزرق القيم الأساسية التى تساعد على استمرار الملك مركزًا على القيم التى تجلب لصاحبها القوة والعظمة والاحترام من قبل الآخرين، وإن أغلب هذه القيم مستمدة من الإسلام كالشجاعة والعفة والسخاء. وأوضح القيم غير الجيدة التى تؤدى إلى تدهور الملك وضعف الارتباط بين الحاكم والشعب[٢].

١٠ - التغير الاجتماعى:

يعتبر ابن خلدون من أشهر علماء الاجتماع التاريخيين الذين يؤمنون بحتمية تغير المجتمع من نمط إلى آخر. فالمجتمع كالكائن الحيوانى الحى يولد وينمو ويتكامل ويضعف ويموت[٣].

إن السبب الرئيسى لهذا التغير هو ضعف العصبية والتضامن بين الأفراد وشيوع الرفاهية والرخاء والطمأنينة والاستقرار فى ربوعه وعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم. فى مثل هذه الظروف يتعرض المجتمع إلى العدوان والاحتلال فيتحول من شكل إلى شكل آخر، والمجتمع الذى يشهد مثل هذه الحالة هو المجتمع الحضرى. ذلك المجتمع الذى يكون فى حالة صراع دائم مع مجتمع البدو المحيط به[٤].

إن الدولة تبنى على أساس التضامن وعدم التناحر، غير أن التضامن يأخذ بالضعف كلما مرَّ زمن أطول على نشوء الدولة. وتكون الدولة متماسكة متكاملة فى مراحل نشوئها الأولى خصوصًا عندما يتوفر لها خضوع الأفراد وتمارس عليهم سلطة مطلقة، لكن الضعف والتدهور يتسرب إليها شيئًا فشيئًا كلما دارت عجلة التغير، وتعلم الحياة الحضرية على تفتيت الحكم، ذلك أن أهل الحضر يركنوا إلى الحياة الهادئة

---

(١) حقى، ألفت محمد، مناهج البحث فى علم النفس، القاهرة، دار الفكر الجامعى، ١٩٨٦، ص ٢٠٠ - ٢٥٠.

(2) Krech D. and Crutchfield Individual in Society, New York, 1963, pp. 30-32.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢١٤.

(٤) الوردى، على (الدكتور) منطق ابن خلدون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بغداد، ١٩٧٢، ص ١٠٠ - ١٢٠.

والمستقرة، الحياة الخالية من الخشونة والاضطراب وعدم الاستقرار بينما يميل سكان البدو الذين يقطنون الصحارى المحيطة بالمدن إلى الخشونة والتوسع والاحتلال فيحدث نتيجة لهذه الأوضاع الصراع الأهوج بين سكان الحضر وسكان البادية، الصراع الذى ينتهى بفوز قبائل البدو على الحضر(١).

ويتناول ابن خلدون دراسة حتمية التغير التاريخى للظواهر والنظم العمرانية، فالظاهرة العمرانية هى ظاهرة متبدلة ومتطورة على مرّ الزمن، لذا يقرر ابن خلدون فى تناوله لعلم التاريخ حقيقة هامة مؤداها أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع فى الأنساق والأقطار والأزمنة والدول(٢).

وهذه العبارة تدل على أن ابن خلدون يذهب إلى أن التغير والتبدل يقع فى العالم الطبيعى، كما يقع أيضًا فى العالم الاجتماعى، ولكنه يرجع سبب هذا التغير والتبدل إلى عامل سياسى، حيث يقول: «إن السبب الشائع فى تبدل الأحوال والعوائد التابعة لكل جيل تبعًا لتبدل عوائد سلطانه، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم وخرجت من عوائدهم وعوائدها، خالفت أيضًا بعض الشىء وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى يصل إلى المباينة بالجملة(٣).

مما تقدم يمكننا أن نوضح حقيقتين اجتماعيتين بالغتى الأهمية، الأولى تتمثل فى حقيقة كون التغير والتحول مرتبطين أساسًا بالنظام السياسى، والحقيقة الثانية هى أن الاتصال الحضارى بين الدول يعد من أهم الأسباب اختلاف العادات، غير أن هذا الاختلاف لا يحدث دفعة واحدة وإما يشهد عملية تدريجية حتى يصل إلى النهاية(٤).

(١) عمر، معن خليل (الدكتور)، نقد فكر ابن خلدون الاجتماعى، آفاق عربية، العدد الأول، السنة الرابعة، إصدار وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ١٩٧٩، ص ٥٧.

(٢) الجابرى، حمد عايد (الدكتور)، العصبية والدولة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧١، ص ١٩٠ - ١٩٥.

(٣) الحسينى، محمد (الدكتور) وآخرون، دراسات فى التنمية الاجتماعية، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٣٨.

(4) Krishnas Way, K.S., Society and Change, Oxford University Press, 1977, pp. 170 - 181.

وحـدد ابن خلدون أطوار الدولة بخـمسـة أطوار تمر خـلالهـا الدولة فى سلسلة متـتـابعة الحلقات تشبه تمامًـا تطور الكائن الحى، فالطور الأول هو الظفر بالبـغية وغلب الدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدى الدولة السالفة قبلها. . . والطور الثانى طور الاسـتبـداد على قومه والانفـراد دونهم بالملك، والطور الثـالث طور الفراغ والدعة لتحصل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه، والطور الرابع طور التنوع والمالة، والطور الخامس طور الإسراف والتبذير.

وفى هذا الطور تحصل فى الدولة طبيعة الهـرم ويستولى عليها المرض المزمن الذى لا تكاد تخلص منه، ولا يكون معه الشفاء إلى أن تنقرض. ولهذا فإن الدولة كائن حى يحيا ويموت له بداية ونهاية ويخضع لعوامل النمو والفناء[1].

يضاف إلى ذلك أن المجتـمعات يمكن أن تبقى فى مرحلـة الطفولة أو فى مرحلة النضوج أو مرحلة الهرم فترة طويلة، وقد يخـتتم مجتمع ما حياته فى المرحلة الأولى أو الثانية وقد يقاوم نهايته فى إحدى هذه المراحل. . .إلخ[2].

***

(١) وافى، على عبـد الواحد (الدكـتور)، مقـدمة ابن خلدون، لجنة البـيان العـربى، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٦٠ - ٣٦٥.

(٢) عبد البـاقى، زيدان (الدكتور)، التفكـير الاجتماعى، دار الفكـر الاجتماعى، الطبعـة الثالث، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٧٧ - ١٨٠.